

ترجمات | Translations

المعنى المبكر للقرآن*

The Earliest Meaning of the Qur'an

ويليام غراهام

William Graham

ترجمة

بدر الحاكيمي⁽¹⁾

Badr Elhakimy

(* هذه المقالة عبارة عن نسخة منقحة من ورقة قدمتها في مؤتمر تكريم ويلفريد كانتويل سميث (Wilfred Cantwell Smith)، الذي عقد في جامعة هارفارد في شهر يونيو 1979م. قدمتها تقريبًا في شكلها الحالي كجزء من ورقة أطول على الجوانب الشفوية للكتاب المقدس في مؤتمر حول "الإسلام وتاريخ الأديان"، الذي عقد في جامعة ولاية أريزونا في شهر يناير 1980م. وستنشر لاحقًا نسخة منقحة وموسعة من هذه الورقة الأخيرة تتضمن أجزاء صغيرة وملخصًا لحجج المقال الحالي في كتاب مارتن (Martin) الصادر سنة 1984 بعنوان: الإسلام وتاريخ الأديان (دار جامعة ولاية أريزونا). كتبت المقالة الحالية قبل أن تنشر أنجليكا نويفرث دراستها المثيرة الموسومة بـ: دراسات حول نظم السور المكية (برلين، 1981) وكذلك مقالها الموسوم بـ "بنية سورة يوسف".

Zur Struktur der Yusuf-Sure", in W. Diem and S. Wild, ed. Studien aus Arabistik und Semitistik. Anton Spitaler zum siebenzigsten Geburtstag (Wiesbaden: Harrassowitz, 1980) pp. 123152.

تبرهن نويفرث بإقناع من خلال إصرارها على الطابع الأساسي للقرآن بوصفه نصًا متلوًا (Rezitationstext) ومقاربتها البنيوية للنص وسوره على الحاجة إلى معرفة الوظيفة الشفهية والقرائية للقرآن. يبدو أن هذه المقالة في شكلها الأصلي لا تستحق أن تقدم كحجة مكتملة لمركزية هذه الوظيفة الشفهية والقرائية في الإسلام المتأخر فقط، بل حتى في الإسلام المبكر.

(1) دكتوراه وخريج مؤسسة دار الحديث الحسنية- جامعة القرويين. باحث في الدراسات القرآنية. (المغرب). البريد الإلكتروني: badr.modem@gmail.com.

ومن الواضح أنَّ مصطلحَ **قرآن** المرادف للمصحف هو أساسًا استعمال جاء بعد عثمان، أو قطعًا استعمالًا بَعْدَ محمد. إذ لم يكن مصطلحُ **قرآن** المتداول يدل على المجموعة الكاملة **للوحي المجموع في مصحف** قبل تدوين النص المُتَلَقَّى أو على الأقل عند توقف الوحي الحيوي مع وفاة محمد⁽⁴⁾. وهذا لا ينفي وجود بعض الإشارات في القرآن نفسه إلى المفهوم المتطور للوحي المدون من خلال استعمال ألفاظ مثل القرآن والكتاب، غير أنها لا تؤكد إلا على خطأ يكمن في **إعادة قراءة** المعنى المادي المتأخر (المصحف) لهذه المصطلحات في الاستعمال القرآني أو في استعمالات نصوص الحديث الأخرى. فلا يدل مصطلح القرآن في الأصل، كما سنرى أدناه، على المجموعة الكاملة للوحي الذي تلقاه محمد من الله، ولا يدل أيضًا على **الكتاب** بوصفه نصًا مدونًا.

إن الاعتبارَ الأول المهم في فهم المعنى المُبَكَّر للقرآن عند المسلمين هو أن عملية الوحي الإلهي لم يفهمها النبي والصحابة والأجيالُ اللاحقة المتعددة من المسلمين بطريقة ثابتة، بل بطريقة حيوية نسبيًا. وبما أن الوحي الفردي كان يسمى على ما يبدو **«آية»** أو **«قرآن»**، ويكتسي منزلة خاصة، ويتميز عن

عادةً ما يستعمل طلبة الإسلام والمسلمون أنفسهم المصطلحَ العربي «قرآن» كاسم عَلَمٍ مُعَرَّفٍ بـ«أل» للدلالة على القرآن⁽¹⁾. ويقصدون به المدونة المجموعة والمكتوبة من الوحي الذي تلقاه محمد من الله على الهيئة الحالية التي جمعه وَرَتَّبَهُ بها القراء الأوائل الثقات أو حملة القرآن الذين عاشوا حتى عهد الخليفة الثالث عثمان (23/635 - 644/656)⁽²⁾.

وَعُرِفَ الوحي منذ ذلك الوقت بأنه **نص مدون**، وسُمِّيَ بـ **القرآن** أو بـ **الكتاب**. وَيُصْطَلَحُ عليه في الاستعمال التقليدي بـ **«ما بين الدفتين»⁽³⁾**، ويُفهم في الإسلام لاهوتيًا بوصفه **كلام الله** المحفوظ في أم الكتاب، والمكتوب في المصاحف للاستعمال البشري. وبهذه الطريقة يَعُدُّ المسلمون **القرآنَ** كلامَ الله الأخير الموجه إلى البشرية؛ ويقصدون به **الوحي المكتوب** الذي لا يُصحح **كتب** الله السابقة التي لم يحفظها أهل الكتاب السابقين من اليهود والمسيحيين فقط، بل يتجاوزها أيضًا.

(1) يستثنى من ذلك العنوان الآتي: «قرآن كريم» بالتنكير الذي يظهر على كثير من الطبعات (بدلًا من القرآن الكريم)، وكأنه اقتباس من الآية 77 من سورة الحديد.

(2) هذا التفسير لتاريخ نشأة النص القرآني المُتَلَقَّى يُعزَى عموماً إلى الدراسات غير الإسلامية الحديثة، وكذلك العلماء المسلمين. وقد هاجمه جذريا في الزمن الراهن من دون إقناع عدة علماء وأشهرهم جون وانسبورو وجون بورتون في كتابهما:

John Wansbrough, *Quranic Studies: Sources and Methods or Scriptural Interpretation* (Oxford, 1977); and John Burton, *The Collection of the Qur'an* (Cambridge, 1977).

(3) محمد بن إسماعيل البخاري، **الصحيح**، 9 أجزاء (بيروت، د. ت) 66: 16؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، 6 أجزاء (القاهرة، ج. 1، ص 415، 1895/1313).

(4) Buhl, "Koran", *EI*, II, 1063b.

مناقشته لهذه النقطة هي الأوضح في كتاباته؛ لكن انظر كتاب:

Theodor Nöldeke, *Geschichte des Qorans* (2 voll. rev. by F. Schwally, Leipzig, 1909-19)[Hereafter "Nöldeke-Schwally"], I, 31-34.

الذي نزل به سائر القرآن، الذي أُمِرْنَا بتلاوته، وكتابه في المصاحف، ونقله إلينا العامة عن العامة»⁽⁸⁾.

وتُصيَّفُ النقاشاتُ اللاحقةُ حول الموضوع نفسه فرقا آخر، وهو أن القرآن لفظ من الله، أما الحديث القدسي فرواية محمد لكلام الله حسب معناه فقط. وهذا يدل على أن القرآن وحده من يتصف بالإعجاز⁽⁹⁾، غير أن النصّ المذكور أعلاه لا يُشيرُ إلا إلى منحى لاهوتي بدوًا من المنحى الوظيفي؛ ومن ثم سأسعى من خلال هذا المنحى الأخير إلى فهم أوضح للمعنى الأصلي لمصطلح القرآن في الاستعمال الإسلامي؛ وهو طابع القرآن بوصفه وحياً يتميز بنظمٍ خاصٍّ مُخصَّصٍ للقراءة في العبادة التي تميزه عن بقية النصوص الأخرى. لقد أضحت القرآن بطبيعة الحال متميزاً من الناحية اللاهوتية بطرق مختلفة (مثل إعجازه وعمد خلقه) عن جميع الخطابات الأخرى. غير أن الاتجاه السائد في كل من الدراسات الإسلامية في العصور الوسطى والدراسات الغربية المعاصرة (بتأثير من توجه فلسفي يوناني؟) الذي يعطي الأسبقية لمكانته الوجودية أو **الجوهرية**، بوصفه خطابَ الله المفارق لخاصيته الوظيفية التعبديّة، ينأى من وجهة نظري عن كون القرآن قوة فاعلة في حياة المسلمين المبكرة والمتأخرة.

كلام محمد الخاص منذ البداية، فقد وجدت ألفاظ وحي إلهية أخرى متداولة منذ البداية؛ بل يبدو أن عملية الوحي نفسها التي تلقى من خلالها الرسول القرآن كانت متعددة وداخلية أو نفسية خلافاً للتفسير اللاهوتي المتأخر. لقد كان محمد في اتصال دائم مع الله، ومن ثم لم يتوقف الهدى الإلهي إلا مع التلاوات الرسمية المعروفة باسم «القرآن» وحده. وتعد هذه الصورة للوحي في الإسلام المبكر خلفية مهمة لإنجاز دراسة فاحصة للمعنى الأول لمصطلح القرآن⁽⁵⁾.

فما الخاصية المميزة للقرآن عن كلام النبي أو الكلام الإلهي الآخر غير القرآن؟ قد يكمن مفتاح هذا السؤال في نص إسلامي متأخر يتعلق بأحد أهم أنواع كلام الله غير القرآن المُسمى بـ «الحديث القدسي»⁽⁶⁾.

يذكر هذا النص في أقدم الأعمال الموجودة في كتب علوم القرآن⁽⁷⁾ وهو محاولةٌ لتمييز الحديث القدسي المُسمى قطعاً بـ «الوحي والتنزيل»، عن الوحي القرآني في حد ذاته. إذ يُعرَّفُ الحديثُ القدسيُّ بأنه:

« حُكْمٌ حَكَمَ بِهِ اللَّهُ وَأَوْحَاهُ وَأَنْزَلَهُ، وَلَا تَجُوزُ تِلَاوَةُ شَيْءٍ مِنْهُ فِي الصَّلَاةِ: إِذْ لَمْ يَنْزَلْ بِالنِّظْمِ

(5) لعرض مفصل لهذه الأفكار، انظر كتاب:

William A. Graham, *Divine Word and Prophetic Word in Early Islam* (The Hague, 1977), esp. Part I.

(6) فيما يتعلق بهذه الأحاديث، انظر: المصدر نفسه، وخاصة الجزء الحادي عشر الموسوم بـ: «الحديث القدسي».

(7) **كتاب المباني** لمؤلف مجهول (كُتِبَ عام 425/1033) حققه آرثر جيفري (Arthur Jeffery) في كتاب بعنوان: **مقدمتان في علوم القرآن** (القاهرة: 1954) ص 5 - 250.

(8) Ibid., p. 89.

(9) لوصف هذه النقاشات المتأخرة، بما في ذلك وصف ابن خلدون، انظر:

W. Graham, *Divine Word and Prophetic Word*, pp. 56-62

وقد رجّحت الدراسات اللغوية الحديثة الاشتقاق الأخير. وأكدت بقوة على أولوية معنى «تلا، وقرأ بصوت عال» على أي معنى حرفي صامت أو معرفي بحث للفعل «قرأ»⁽¹⁵⁾.

ويتقوى هذا الترجيح الثالث للفعل **قرأ** أيضاً بالتأثير المحتمل على الحقل الدلالي للفعل ومشتقاته من الاستعمال السرياني المسيحي؛ إذ يدل فعل ق-ر-أ في السريانية على «دعا، ونادى» ثم «تلا، وقرأ بصوت عال [النصوص الكتابية خاصة]»⁽¹⁶⁾ والأهم من ذلك هو استعمال الصيغة الأساسية قريانا (*qeryānā*) خاصة للدلالة على **القراءة التعبديّة والشفوية** من الكتاب المقدس (= *lectio, ἀνάγνωσις*) وللدلالة على مقطع يتلى من الكتاب المقدس (*lectio, periocha*).

فلم يكن المصطلح العربي «**قرآن**» متداولاً قبل القرآن نفسه⁽¹⁰⁾. وتقدّم المصادر الإسلامية معان واشتقاقات أصلية متعددة، تنحصر في ثلاثة أصول:

أولها: أنه صيغة خاصة بدون جذر، جعل غَلماً للدلالة على الكتاب المقدس العربي كما أطلق اسم التوراة للإشارة إلى اليهود، والإنجيل للإشارة إلى المسيحيين⁽¹¹⁾؛

ثانيها: أنه مصدر غير مهموز، قرآن، مشتق من الفعل قَرَنَ⁽¹²⁾؛

ثالثها: مصدر مهموز «قرآن» مشتق من الفعل قَرَأَ، ويدل إما على جَمَعَ⁽¹³⁾ أو «تلا وقرأ بصوت عال»⁽¹⁴⁾.

(10) A. Jeffery, *The Foreign Vocabulary of the Qur'an* (Baroda, 1938), p. 233.

(11) جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج. 2 (القاهرة: 1370/1951) ص 50 - 51، مستشهداً بالبيهقي والخطيب بوصفهما مصدرين أساسيين. راجع: Jeffery, *Foreign Vocabulary*, p. 234, n. 1.

(12) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج. 1، ص 51، مستشهداً بالأشعري بوصفه أحد هؤلاء العلماء الذين رجحوا هذا الاشتقاق، راجع: A. Jeffery, *Foreign Vocabulary*, p. 233.

(13) **تفسير** محمد بن جرير الطبري، ج. 1، تحقيق: محمود محمد شاكر ومحمود أحمد شاكر (القاهرة: د. ت) ص 95-96. E. W. Lane, *An Arabic Lexicon*, vol.8 (London, 1863-93), VII, 2502; Noldeke-Schwally, I, 31-32.

انطلاقاً من هذا المعنى للجذر، بمعنى انقباض الرحم، اشتق لفظ قراء (ص 2: 228)؛ راجع أدناه، ص 28.

(14) فَسَّرَه الطبري في تفسيره، ج. 1، ص 94، بالتلاوة والقراءة؛ راجع:

Lane, *Lexicon*, VII, 2502.

انظر أيضاً ما نبهني إليه زميلي وولفارت هاينريش (Wolfhart Heinrichs)، أنه من المعقول على الأقل أن يكون معنى «قرأ» قد تطور عن معنى «جمع» دون أي تأثير خارجي، قارن أيضاً الفعلين اللاتيني (Legere) والألماني (Lesen)، اللذين يدلان على المعنى نفسه.

Personal Communication, September 1979.

(15) يتفق أكبر العلماء على هذا المعنى. ويرى ماير (Meyer) أن المعنى الأصلي للفعل «قرأ» هو قراءة شيء مكتوب، انظر:

E. Meyer, *Ursprung und Geschichte der Mormonen*, 1912 and K. Dyroff, "Zu Sure 96, 1-5", MVAG, XXII, 1917, pp. 178-180.

غير أن كثيراً من العلماء رفضوا رأيه بإقناع، انظر: J. Pedersen, *Der Islam*, V, 110-115. See also Noldeke-Schwally, I, 31-34, 78-82; Jeffery, *Foreign Vocabulary*, p. 233; Josef Horowitz, *Koranische Untersuchungen* (Berlin and Leipzig, 1926), pp. 74-76; and C. Snouck Hurgronje, *Mekka*, vol. II (The Hague, 1889), p. 225, n. I, and «Une nouvelle biographie de Mohammed», RHR, XXX, 61-62, 154-155.

(16) Cf. R. Payne Smith, *Thesaurus Syriacus*, 2 voll. (Oxford, 1883-1901), II, 3715 f

التأكيد على أن استعمال صيغة **قرآن** لا تشير هنا إلا إلى تأثير مسيحي سرياني **محتمل** على المعنى العربي لمصطلح **قرآن**، وهو قطعاً اقتراض غير مباشر (ربما اقتراض من صيغة المصدر قريان)⁽²⁰⁾.

ولا مناص من الإشارة أيضاً إلى تأثير ثانٍ **مرجوح** و**محتمل** أيضاً على المعنى والدلالات الخاصة بمصطلح «قرآن» في التداول الإسلامي الأصلي، وهو تأثير الصيغ العبرية المتصلة بالجزء ق- ر- أ. إذ يرادف التداول اليهودي الحاخامي لـ قريا (q'rāṭ) و (miqrā) استغفمالي قريانا (qeryānā) بين المسيحيين السريان المذكورين أعلاه⁽²¹⁾. يستعمل لفظ **ميقرا** (Miqrā) أيضاً بوصفه مصطلحاً تلمودياً للدلالة على الكتاب المقدس بأكمله⁽²²⁾، وهو مصطلح «يؤكد على كل من الأسلوب

(20) صيغة المصدر **فعلان** كافية للقول بأن **قريان** هو المصطلح الذي اقتراض منه مباشرة «قرآن». كما ذكرني بذلك زميلي (W. Heinrichs) في اتصال شخصي. راجع أيضاً على سبيل المثال المصادر الآتية: رضوان وحرمان ونسيان. J. Horowitz, "Qur'ān", in *Der Islam*, XIII I (1923) p. 67. لم يميز هوروفيتز (Horowitz) بين المصطلحين، بل سماهما معا قراءة الكتاب المقدس (Schriftverlesung). ويرى نولدكه وشفالي في الجزء الأول من كتابهما ص 32، أن لفظ مقرا (miqra) يأتي للدلالة إما على أجزاء من الكتاب المقدس أو الكتاب المقدس بأكمله. ويرى جيفري في كتابه «المفردات الأجنبية»، ص 234 أن كلا من مراتشي (Marracci) وغيغر (Geiger) دافعا عن الأصل العبري لمصطلح القرآن، لكنه يختار المصطلح السرياني. لقد اقتنعتُ بأهمية هذين الاستعمالين اليهوديين لفهم الخلفية التاريخية، خاصة بعد الاطلاع على جزء من ورقة لم تنشرها الباحثة جوديث فيغندر (Judith Wegner). وهي باحثة في مدرسة القانون بهارفرد، وناقشت معها ورقتها والورقة الحالية في شهر نونبر، عام 1979م. ومع ذلك، ترى أن التأثير اليهودي يمكن البرهنة عليه.

(22) D. Künstlinger, "Kitāb und Ahlu-l-kitāb", RO, IV (1928) p. 239, and "Die Namen der 'Gottes-Schriften' im Qorān", RO, XIII (1937), 76, n. 2. Cf. Nöldeke-Schwally, I, 32; EJ, IV, 816

(= locus leganda, ἀνάγνωσμα, περιοχή)⁽¹⁷⁾. وقد أُكِّد على علاقة صيغة المصدر **قرآن** بغير همز بـ مصطلح قريانا السرياني تقريباً جميع علماء القرآن في الغرب، غير أنهم لم يشيروا إلى أي مصدر سرياني أو دليل تاريخي واحد قبل الإسلام يشير إلى الاستعمال الشعائري المسيحي⁽¹⁸⁾. ولكن يمكن إثبات هذا الدليل اليوم بوضوح في المخطوطات السريانية الشعائرية في القرنين السادس والسابع الميلاديين⁽¹⁹⁾، وهو ما يُؤيد حجة التأثير التاريخي هنا على الاستعمال العربي، وعلى المعنى **الشفوي الصوتي** للفظ العربي. لكن يجب

(17) Ibid., II, 3716b.

يذكر بايني (Payne) عدداً من الموارد التي ورد فيها لفظ (قريان) بالمعنى الأول في المصادر المسيحية قبل الإسلام، بدءاً من تيموثاوس الأول، 4: 13، وعدة مواضع ورد فيها بالمعنى الثاني في المصادر المبكرة مثل تعليق القديس كيريل (C'yril) على إنجيل لوقا. ومع ذلك، فإن الفحص الفوري لهذه الموارد لا يثبت بوضوح استعمال اللفظ باعتباره مصطلحاً تقنياً في السياق التعبدية.

(18) يستشهد الجميع عموماً إما ببعضهم أو بمراجع ثانوية أخرى أو يقدمون هذا الرأي بناء على انتمائهم اللغوي، مثل:

A. Mingana, "Syriac Influence on the Style of the Kur'dn", Bull. J. Rylands Lib., XI (1927), 88, n. 1; Nöldeke-Schwally, I, 33-34; Julius Wellhausen, "Zum Koran", ZDMG, LXVII (1913), 634; F. Buhl, EI, II, 1063b; Tor Andrae, Mohammed sein Leben and sein Glaube (Göttingen, 1932), p. 79; Horowitz, Der Islam, XIII, 66-67; Richard Bell, The Origin of Islam in Its Christian Environment (London, 1926), pp. 90-91; Rudi Paret, Mohammed und der Koran, 2nd ed. (Stuttgart, 1957), p. 53-54; and Jeffery, Foreign Vocabulary, p. 234.

(19) أخبرني ألفورد ولش (Alford T. Welch) في اتصال شخصي في السادس والعشرين من شهر مارس، عام 1980م، بأن سيباستيان بروك (Sebastian Brock) من جامعة أكسفورد قد استشهد له بمواضع محددة من النصوص التعبدية ورد فيها مصطلح «قريانة» في القرنين السادس والسابع الميلاديين. مثل القراءة يوم الأذعية (the Qeryānād -yōm bi'awātā) والقراءة يوم خميس الصعود (Qeryānā d-sulāqeh d-miran). وقد أثبت ذلك شخصياً مع الأستاذ بروك (Brock) منذ شهر أكتوبر، عام 1982م.

لقد أمسى هذا الأمر واضحاً أكثر عندما يتذخّر المرء، بغض النظر عن العلاقة الطبيعية للتلاوة الشفهية بالخطاب المقدس، أنّ «الكتب» لم تكن في العصور المتأخرة نسيباً سوى نصوصاً تُقرأ في الأصل بصوت عالٍ أو تتلى وتحفظ عن ظهر قلب. (وينطبق هذا الأمر من باب أولى على الكتب المقدسة). ولم يتغير هذا المفهوم تدريجياً إلا مع ثورة غوتنبرغ في الغرب⁽²⁵⁾. فإلى حدود القرنين الثاني والثالث الماضيين على وجه التحديد، رَبط انفجار «ثقافة الكتاب» في الغرب أولاً ثم في جميع أنحاء العالم، مفهوم النص بالكتاب المطبوع عوضاً عن الخطاب المنطوق. (وقد تتضاءل في العقود الأخيرة هيمنة الخطاب المكتوب تحت تأثير تكنولوجيات التواصل الجديدة)⁽²⁶⁾.

غير أن الوضع لم يكن على هذا المنوال في السابق أبداً، بل كانت معظم المجتمعات الثقافية أو الدينية إلى حدود العصور المتأخرة أمية في عدد من الدول الأوروبية، ومن ثم لم تكن تعتمد إلا على القراءة بصوت عالٍ أو التلاوة من أجل إلقاء النصوص. بل لم تُمارس حتى الأقليات المتعلمة في معظم المجتمعات القراءة الصامتة إلا في زمن متأخر جداً؛ فقد كانت القراءة في معظم التاريخ البشري تتم

الصوتي للدراسة والدور المركزي الذي لعبته قراءة الجمهور للكتب المقدسة في طقوس اليهود⁽²³⁾. ورغم أن صيغة مصطلح «قرآن» تختلف عن صيغة المصطلح العبري؛ وهو ما ينفي الاقتراض المباشر من العبرية، إلا أن هذين الاستعمالين اليهوديين إلى جانب المصطلح المسيحي قد يؤثران على معنى القرآن في التداول العربي.

ومهما يكن أصل المصطلح الذي يفضله المرء، فإثر الأدلة واضح في جانب واحد: وهو فهم مصطلح القرآن على أنه قراءة الكتاب المقدس أو تلاوته مثل قراءة اليهود والمسيحيين لكتبهم في البيئة العربية⁽²⁴⁾. وبغض النظر عن تاريخه اللغوي، فمصطلح «قرآن» يشير في هذه الحالة إلى كل من يرى أن هذه الألفاظ كانت تُقدّم على أنها كلام الله المقدس لتلاوته في العبادة. ففي المحيط العربي في القرن السابع الميلادي، كانت هذه التقاليد الدينية القديمة (وربما التقاليد الزرادشتية) واضحة جداً؛ إذ لم يكن مصطلح «كتاب» الذي يُتلى في الشّعائر والعبادات وثيقة مفروءة بصمت، بل كان خطاباً مقدساً يقرؤه المرء بصوت عالٍ ويُصغي إليه بخشوع.

(25) تولى إليزابيث (Elizabeth) في كتابها أهمية بالغة ومصداقية كبرى للطباعة باعتبارها قوة ثورية في عصر الإصلاح والتاريخ الأوروبي اللاحق، غير أنه لا يمكن أن ننكر أن تلك الثورة في الاتصال لم تأت إلا نتيجة لاختراع الصحافة. Elizabeth Eisenstein, *The Printing Press as an Agent of Change* (Cambridge, 1979).

(26) بدأ تأثير تكنولوجيا الفيديو والكمبيوتر يغير جذرياً التواصل اليوم و«تخزين» المعلومات.

(23) Encyclopedia Judaica, IV, 816:1. Elbogen, Der jüdische Gottesdienst in seiner geschichtlichen entwicklung (3rd ed. rev. Frankfurt a./M., 1931) pp. 155-205.

(24) هذا الرأي هو نفسه الذي قدمه تور أندري (Tor Andre) في أسلوب حتمي، بالإضافة إلى ذكائه. انظر: Tor Andrae, pp. 78-79 (= p. 96 of Eng. trans. by Th. Menzel [rev. ed. New York, 1960])

«للتلاوة» للصيغة الأكثر تكرارا (87 مرة) للجذر قرأ، وللمصدر «قرآن» نفسه أيضا.

لم يرد الفعل التام «قرأ» مرتبًا بلفظ «الكتاب» إلا في مواضع قليلة للإشارة إلى معنى سهل للفعل «قرأ»، مثل (29): ﴿هُوَ يَكُونُ لَكَ بَيِّنَةً مِّنْ ذُنُوبِكِ أَوْ نَذِيرًا فِي السَّمَاءِ وَلَكِنْ نُؤْمِنُ بِرُؤْيَاكَ حَتَّىٰ نُنَزَّلَ عَلَيْكَ لَكِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الإسراء: 93]؛ (30): ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ﴾ [يونس: 94]؛ (31)، واستعمل فعل قرأ في ثلاث آيات مقرونا بلفظ الكتاب بوصفه شيئًا ملموسًا للإشارة إلى قراءة كل شخص

عن طريق تحريك الشفاه بصوت عالٍ، حتى في لحظة خلوة المرء بنفسه»⁽²⁷⁾.

وفيما يتعلق بالقرآن، يكتشف المرء أن أدلته الداخلية تثبت أن مصطلح القرآن لا يدل في الأصل إلا على «التلاوة [بصوت عالٍ]:» فتكرار فعل الأمر «قل» أكثر من ثلاثمائة مرة، متصدرًا مطالع كثير من المقاطع القرآنية، هو في حد ذاته تذكير لافت للنظر للإشارة إلى أن هذه النصوص لم يقصد بها في الأصل إلا التلاوة بصوت عالٍ. غير أن ما لم يؤكد عليه بشكل كافٍ، هو التناسق اللافت للانتباه للمعنى **المستنبط** عندما يعتمد المرء على المعنى الأصلي في القرآن للفعل «قرأ بصوت عالٍ، وتلا شفويا» للموارد السبع والثمانين التي يرد فيها الجذر ق-ر-أ،⁽²⁸⁾ وعلى وجد التحديد عندما يحتفظ المرء بالخاصية الشفوية

(29) اعتمدت في جميع مراجع القرآن على طبعة القاهرة، أما الترجمات التالية وكل الترجمات اللاحقة للقرآن فهي ترجمتي الخاصة، وقد اطلعت على عدة ترجمات أوروبية، مثل:

R. Paret, Der Koran (Stuttgart, 1962); R. Blachère, Le Coran, vol. 2 (Paris, 1949-51); R. Bell, The Qur'an, vol. 2 (Edinburgh, 1937-39); and (to a lesser extent) A. J. Arberry, The Koran Interpreted, vol. 2 (London and New York, 1955).

(30) Buhl, El, II, 1063a.

يذكر ذلك بوصفه الموضوع الذي يأتي فيه الفعل قرأ بمعنى (read): وقد ترجمه بلاشير بـ (lire)، وترجمه ريتشارد بيل بـ (read)، وترجمه رودي باريت بـ (Lesen).

(31) عند مقارنتها بالسياق المماثل في سورة الإسراء، الآية: 93، الذي ناقشناه أعلاه، لم يترجم الفعل قرأ هنا بـ (lesen) سوى رودي باريت (Rudi Paret): أما بيل (Bell) وأربيري (Arberry) فقد ترجمهما بـ تلا، في حين ترجمهما بلاشير بـ **القارئ**؛ وهذا يقوي ترجمتي الخاصة أدناه، ويمكن بطبيعة الحال أن يدل اللفظ الألماني «lesen» هنا، مثل مرادفه بالفرنسية والإنجليزية، على «قرأ بصوت عالٍ» (verlesen vorlesen).

(27) Cf. J. Balogh, «Voces Paginarum. Beitrage zur Geschichte des lauten Lesens und Schreibens», *PiTiologr?*,s, LXXXII (1976-27), 83-109, 202-240; J. Leclercq, *L'Anmur des leures et le désir die Dieu* (Paris, 1957), pp. 20-23; Walter J. Ong, *The Presence (l)'Ille Word* (New Haven, 1967; 2nd ed. Minneapolis, 1981), pp. 58-65; and Marshall McLuhan, *The Gutenberg Galaxy: The Making of Typographic Man* (Toronto, 1962), pp. 82-95; also pp. 18-21, 2 6-28, 4 5-50, 74-79.

قارن المقطع الشهير الوارد في اعترافات أوغسطين الذي انبهر به لدرجة أنه عندما قرأ أمبروز كتابًا، «تَصَفَّحَتْ عيناه الصفحات، وبحث قلبه عن المعنى، لكن صوته ولسانه كانا في حالة راحة». بحيث لا يمكنه سوى التعليق على ما استجد دون القدرة على المساعدة.

(tr. E. Pusey [New York, 1949], p. 98; Latin orig., ed. J. Gibb and W. Montgomery [2nd ed. Cambridge, 1927], p. 141, lines 10-11).

(28) يرد اللفظ في الحقيقة ثمانية وثمانين مرة، غير أن صيغة الجمع قروء (سورة البقرة، الآية: 228)، لا تدل إلا على دورة الحوض وتشتق من الفعل قرأ كما أشرنا أعلاه؛ ومن ثم لا يرتبط هذا اللفظ بأي شكل من أشكال الجذر قرأ الواردة في القرآن.

بصوت عال»، كما في قوله: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] (34) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٣٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشعراء: 198 - 199]: و﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾﴾ [الأعلى: 6].

ويمكن فهم المصدر «قرآن» بشكل أصح في القرآن من خلال الأخذ في الحسبان المعنى الشفوي للفعل **قرأ**؛ فلا يدل اللفظ الوارد في سبعين موضعاً إلا على ثلاثة معان رئيسة:

أولها: بوصفه **فعل القراءة** لكلام الله (ويشمل لفظ الذكر والتلاوة أيضاً):

ثانيها: بوصفه الوحي كله الذي أنزله الله للقراءة والتلاوة (ويشمل أيضاً لفظ الذكر والنذر والفرقان) (35)؛

ثالثها: بوصفه وحياً جزئياً أنزل للتلاوة (ويشمل الآية والسورة أيضاً) (36)؛

ويمكن أن يُقرأ مصطلح «قرآن» في الغالب بإحدى هذه المعاني الثلاثة في مقطع معين. ولكن يميل العلماء إلى تفضيل **المعنى الثاني**، باستثناء بعض الحالات التي يكون فيها هذا المعنى مستحيلاً بوضوح؛ حيث يُوصَفُ بأنه **فعل القراءة** كما في قوله

(34) يعد هذا المقطع أول قرآن أنزل على محمد.

(35) فيما يتعلق بمصطلح الفرقان، انظر مقال رودي باريت المنقح، والمراجع المذكورة فيه: R. Paret, E12, I, pp. 949-950.

(36) أصل لفظ السورة ومعناه الأصلي غير مؤكد؛ راجع: Jeffery, Foreign Vocabulary, pp. 180-181, and Bell, Origin, p. 52.

كتاب أفعاله الحسنة والسيئة يوم القيامة (32). ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 14]. ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْتِيَٰتِكَ يَقْرَءُ وَنَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظَلُّمُونَ فِتْيَالًا﴾ [الإسراء: 71]. ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَذَا مَا أقرءُوا كِتَابِيَةَ﴾ [الحاقة: 19]. ومع ذلك، يقدم المعنى الصوتي للفعل قرأ في كل هذه الأمثلة المعنى الأمثل. ولا تدل القراءة هنا، بناء على الأسباب التاريخية المذكورة أعلاه، بل والسياق الداخلي أيضاً، إلا على «القراءة بصوت عالٍ». ويحتوي كل مقطع بالتأكيد على علاقة واضحة بين القراءة الشفوية أو التلاوة وبين «الكتاب» أو «الكتاب المقدس»- سواء أكان الكتاب السماوي الذي يصدر منه الوحي أو الكتاب السماوي الفردي الذي يُدَوَّنُ فيه قدرُ الإنسان ومصيرُه (33).

وفي مقابل ذلك، لا تُترجم جميع الأمثلة الاثني عشر المتبقية للفعل التام إلا ب«تلا، وقرأ

(32) يترجم كل من بلاشير وبيل وأربري الفعل قرأ هنا بالمعنى الوارد في سورة الإسراء، الآية: 93 (قارن الملاحظة 30 المذكورة أعلاه). غير أن باريت (Paret) ترجمه بـ قرأ بصوت عال (verlesen) في سورة الإسراء، الآية: 71 وسورة الحاقة، الآية: 19، ولم يترجمه بـ قرأ (lesen) إلا في سورة الإسراء، الآية: 14.

(33) لمعرفة العلاقة بين هذين المفهومين المختلفين للكتاب السماوي، انظر:

F. Buhl, "Die Schrift und was damit zusammenhangt", in Oriental Studies (P. Haupt Festschrift), edd. C. Adler and A. Ember (Baltimore and Leipzig, 1926), pp. 370-73, cf. 364-69; G. Widengren, The Ascension of the Apostle and the Heavenly Book (Uppsala and Leipzig, 1950), passim, esp. ch. I; and J. Horowitz, Kor. Untersuchungen, pp. 65-68. Cf. also J. Pedersen's review of E. Meyer, Ursprung und Geschichte der Mornionen (1 9 1 2), in Der Islam, V (1914), 110-115; D. Künstlinger, "Kitab und Ahlu-l-kit5b", RO, IV (1928), 238-247; and Geo Widengren, Muhammad, the Apostle of God, and His Ascension (Uppsala and Wiesbaden, 1955), esp. pp. 1 15-139.

تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿٧٨﴾﴾ [القيامة: 17 - 18]. و﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السُّمُسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: 78]. ويشير أيضًا إلى **الوحي المفرد** في كل من سورة الجن: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن: 1]. وسورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: 3]. وسورة يونس: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا آذَنْتُكُمْ بِهِ فَمَا لِمَ تَلَوْتُمْ عُمَرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس: 16].

وتنذر سورة طه محمدًا من الإسراع بالقراءة: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٧٠﴾﴾ [طه: 114] (37). وتأمره سورة المزمل بترتيله ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿١﴾﴾ [المزمل: 4]. وتشير سورة القصص إلى أن الله من فرض القرآن على محمد ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ قُل رَّبِّ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص: 85]. وتشير ثلاثة مقاطع أخرى أيضًا إلى تلاوة النبي وقراءته لكلام الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٦١﴾﴾ [فصلت: 26]: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأحقاف: 29]: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿١٧١﴾﴾ [الإسراء: 46].

ويذكر النبي أيضا هجر القرآن من قبل البعض في سورة [الفرقان: 29]

(37) الدليل على الترجمة التي اقترحها ريتشارد بيل مقنعة رغم أنها غير قطعية.

R. Bell (W. M. Watt, ed., *Bell's Introduction to the Qur'an* [Edinburgh, 1970], pp. 20-22).

وهذا الميل هو نتيجة لـ «إعادة القراءة» المذكورة أعلاه للمعنى المادي المتأخر للقرآن الذي يوصف بـ «ما بين الدفتين» (أي الكتاب التام والمجموع) الذي يطلق على التلاوات التي أتت لاحقًا لتشكل القرآن المُدَوَّن. ومع ذلك، إذا تمَّت مقاومة هذا الميل، وأخذت القوة اللفظية للكلام في الحسبان، فإن قراءة القرآن بوصفه **فعل القراءة** (المعنى الأول المذكور أعلاه) يهيمن بوضوح على باقي المعاني الأخرى.

وهذا الميل هو نتيجة لـ «إعادة القراءة» المذكورة أعلاه للمعنى المادي المتأخر للقرآن الذي يوصف بـ «ما بين الدفتين» (أي الكتاب التام والمجموع) الذي يطلق على التلاوات التي أتت لاحقًا لتشكل القرآن المُدَوَّن. ومع ذلك، إذا تمَّت مقاومة هذا الميل، وأخذت القوة اللفظية للكلام في الحسبان، فإن قراءة القرآن بوصفه **فعل القراءة** (المعنى الأول المذكور أعلاه) يهيمن بوضوح على باقي المعاني الأخرى.

ففي نصف موارد اللفظ السبعين تقريبًا، يُفضَّل هذا المعنى الحيوي أو يُعَدُّ على الأقل مثله مثل باقي معنَيي القرآن الآخرَين. ويتضح هذا الأمر جليًا في المقطعين المُتَّفَقِ على ترجمتهما وهما: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السُّمُسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ

بوصفه فعل القراءة، فيما لا يقل عن ثمانية من هذه الأمثلة،⁽³⁹⁾ سياقاً تاريخياً تتلى فيه المقاطع ليسمعها الجميع. ويكفي ذكر مثالين على ذلك:

﴿قُل لِّمَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْحِجْرُ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: 88].

﴿وَلَقَدْ صَرَّبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: 58]. ﴿وَلَقَدْ صَرَّبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 27].

وثمة أمثلة أخرى يمكن أن يقرأ فيها القرآن إما بوصفه فعل القراءة أو المقطع المتلو، مثل:

﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: 1].

﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: 1 - 4].

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: 69].

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: 30]. وفي سورة النساء ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيراً﴾ [النساء: 82]:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]. وأضحى فعل القراءة الشفوية

لكلام الله **حيوياً** في سورة الرعد ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْثِقُ لَبَلَّ اللَّهُ الْأُمُورَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِيسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [الرعد: 31]. وهذا يطرح

السؤال البلاغي الآتي: «هل سيؤمن الناس إذا سيرت الجبال أو قطعت الأرض، من خلال [فعل] قراءة القرآن؟ سيخاف هؤلاء الناس بطبيعة الحال من العقاب الموعود في القرآن ﴿فَذَكَّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَيَعِيدُ﴾ [ق: 45]. لكن البعض منهم يصفه بالافتراء ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: 91]: إذ يستمع لتلوته دون إنصات.

ويرد مصطلح القرآن أيضا في عدد كبير من المواضيع مقرونا باسم الإشارة «هذا»⁽³⁸⁾. ويمكن في هذه الأمثلة تفسير عبارة «هذا القرآن» إما بوصفه فعل القراءة أو القرآن كله أو جزء منه؛ ومع ذلك، تستدعي قراءة القرآن

(38) بالإضافة إلى الموارد الثمانية المدروسة في هذه الفقرة، فقد ورد مصطلح قرآن مصحوبا باسم الإشارة هذا في السور الآتية: الفرقان: 30، وسبا: 31، وفصلت: 26، والزخرف: 31، والحشر: 21.

(39) سورة الإسراء: 9، 41، 88، 89، والكهف: 54، والنمل: 76، والروم: 58، والزمر: 27.

نوع من الفهم للكتاب المقدس الذي سبقت الإشارة إليه وهو أن: الكتاب شيء يتلى. فوجود مفهوم الكتاب السماوي ومفهوم الخطاب الإلهي في نص القرآن المجموع بوصفه شيئاً يُقصدُ به الترتيل الشفهي هو مُجرّد تناقض صارخ؛ إذ ينتمي كل منهما إلى عملية الوحي الأوسع.

وفي ضوء ما سبق، تعكس المقاطع الأخيرة المذكورة أعلاه، والمقاطع الأخرى التي تتحدث عن «قراءة القرآن»⁽⁴⁴⁾ أو «تلاوته»⁽⁴⁵⁾ طريقة قراءة النبي للسور التي أدت إلى استعمال مصطلح القرآن باعتباره العنوان الأنسب للقرآن (العربي) الصادر من الكتاب السماوي الذي يتضمنُ كلام الله. فالقرآن عبارة عن تلاوة أوحاها الله إلى محمد كما أوحى الكتب المقدسة السابقة لأنبياء آخرين لتلاوتها. فقراءة القرآن (وحفظه عن ظهر قلب) تعني تلاوة الكتاب الإلهي أو جزء منه⁽⁴⁶⁾.

وَمِنْ ثَمَّ، لا ينبغي أن يُفهم القرآن على أنه (الكتاب) الذي آتاه الله للعرب إلا في مقطع

(44) سورة الأعراف: 204، النحل: 98، الإسراء: 45، الانشقاق: 21. وينطبق الأمر نفسه على الآيات الآتية: ﴿فَأَقْرُؤْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ... فَأَقْرُؤْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: 20]؛ ﴿وَرُؤُونَا فَتَنْتَهِ لِتَفْرُدَ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكُتِّ وَتَذَلَّتْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: 106].

(45) انظر سورة النمل، الآية: 92. يرد لفظ «تلا» في القرآن كله بمعنى (recite). راجع كتاب: محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** (طبعات متعددة).

(46) هذا المعنى لمصطلح القرآن بوصفه كتابا واضح في آية أخرى، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ [سبأ: 31] قد يشير القرآن هنا إلى فعل التلاوة، لكن استعمال عبارة «نؤمن به» قد تشير إلى الكتاب؛ بمعنى كلام الله بناء على الترجمة الأصح.

ويتعين أن نضيف إلى جانب هذه الأمثلة ست آيات أخرى تتحدث عن «قرآن عربي»⁽⁴⁰⁾، وآية وحيدة أخرى دُكر فيها «قرآن أعجمي»⁽⁴¹⁾. يأتي فعلُ القراءة مقروناً بمفهوم الكتاب في آيتين يوصف فيهما مصطلح القرآن بصفة العربي: ﴿كِتَابٌ فَضَّلْتُمْ عَلَيْهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: 3]؛ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 3]. ويأتي مصطلح القرآن أيضا مقرونا في ستة مقاطع أخرى بكتاب مدون أو الكتاب السماوي الذي صدر منه القرآن (اللوح المحفوظ)⁽⁴²⁾. ويظهر ذلك عند المقارنة بين هاتين الآيتين: ﴿أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: 1]⁽⁴³⁾. و﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [في كتاب مَكْنُونٍ] [الواقعة: 77 - 78]. ويُشير هذا التجاور بين فعل القراءة والنص المكتوب إلى

(40) سورة يوسف: 2؛ وسورة طه: 113؛ وسورة الزمر: 28؛ وسورة فصلت: 3؛ وسورة الشورى: 7؛ وسورة الزخرف: 3. من المهم الإشارة إلى أن عبارة **قرآن عربي** ترجمها سنوك هوغرونج (Snouck Hurgronje) «نص يتلى باللغة العربية»!

Snouck Hurgronje, RHR, XXX, 154

أما المقاطع الأخرى التي ينبغي أن يقرأ فيها القرآن إما للدلالة على فعل القراءة أو المقطع المتلو، فتبدأ بأسلوب القسم «والقرآن»: ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ [يس: 2]، ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الْبُرُجِ﴾ [ص: 1]، ﴿قَدْ وَفَّيْنَاكَ الْغَنِيَّةَ﴾ [ق: 1]، والأمر نفسه ينطبق على الشجرة الملعونة في القرآن (إشارة إلى شجرة الزقوم المذكورة في سورة الصافات، الآية: 62)؛ إذ يرى ابن كثير أن عبارة «في القرآن» قد تدل على اللعن: حان التلاوة، أو في المقطع المتلو الذي ذُكرت فيه أو في القرآن كله.

(41) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِي﴾ [فصلت: 44]، والتي أترجمها «ولو تلوناه بلسان أعجمي لقالوا لولا فصلت آياته».

(42) أستعمل مصطلح كتاب في خمسة مواضع: سورة يونس، الآيات: 37، 61، وسورة الحجر، الآية: 15، وسورة النمل، الآية: 1، وسورة الواقعة، الآية: 77. قارن العلاقة بين قرأ والكتاب المذكورة أعلاه، ص 368.

(43) تعكس الآية الأولى من سورة النمل هذه العلاقات وتعريفها النحو: «تلك آيات القرآن وكتاب مبين».

ثمة أدلة كثيرة أيضا خارج نص القرآن تدعم هذا التفسير الشفوي لمعنى القرآن في الفترة المبكرة. وبما أن فحصًا شاملاً للمصادر الأخرى غير القرآن هو موضوع يتطلب دراسة مستقلة، فمن المهم أن نلاحظ هنا على الأقل بعض النصوص التي تدعم الحجة السابقة⁽⁵⁰⁾.

تعد الإشارات الشعرية المبكرة إلى الاستعمال الشفوي لمصطلح القرآن نقطة انطلاق منطقيّة، رغم أن المصادر الإسلامية نفسها لا تقتبس إلا مثالاً واحداً من هذه الأمثلة للقرآن في مناقشتها لمعنى اللفظ. ولا يوجد ذلك إلا في بيت يُنسبُ عمومًا إلى حسان بن ثابت، أحد أشهر الشعراء المخضرمين المرتبطين بنشأة الإسلام والمعاصرين لمحمد⁽⁵¹⁾. يتحدث حسان هنا عن شخص «يَقْطَعُ اللَّيْلَ»⁽⁵²⁾ «تسبيحًا وقرآنًا»⁽⁵³⁾. ولا يدل

واحد يتحدث بوضوح عن الوعد الملزم الذي قطعه الله في التوراة، والإنجيل، والقرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111]. ومن ثم يوضع القرآن بهذا الطريقة في مصاف الكتب المقدسة السابقة التي آتاها الله لليهود والمسيحيين وغيرهم بلغاتهم الخاصة. وبالمثل يبدو أن مفهوم الوحي الكلي أو الجزئي الذي أوحاه الله من السماء إلى محمد بوصفه «كتابًا» للعرب هو المعنى المقصود في الآيات التي يتحدث فيها القرآن عن نفسه بأن الله أنزله (ثماني مرات)⁽⁴⁷⁾، وآتاه، وأوحاه، وتلقاه النبي⁽⁴⁸⁾. ومع ذلك، تظل هذه العملية أولاً وقبل كل شيء شفوية: إذ المعنى الصحيح لمصطلح **القرآن** في القرآن هو معنى شفوي، وقطعًا واقع حيوي ومستمر، بدلاً من معنى نص مدون و«مغلق» والذي لم يُسمَّ إلا لاحقاً بالمصحف⁽⁴⁹⁾.

(50) الأدلة على دعوى ترادف القرآن مع المصحف بوصفه ظاهرة لاحقة (على الأقل بعد عثمان) متوفرة بإسهاب. ويمكن تقديم عشرات الأمثلة الملموسة أو الاستخدام الملموس حتى عن طريق تصوير المداخل الواردة في كتاب فنسك الموسوم بـ

A. J. Wensinck et al., *Concordance et indices de la tradition musulmane*, vol.7 (Leiden, 1936-69), s.v. «qur'ān».

(51) W. Arafat, "Hassan b. Thabit", El 2, III, pp. 271-73.

(52) بمعنى قام في الليل لأداء صلاته. كان هذا التهجد بطبيعة الحال ممارسة تعبدية مألوفة في الإسلام. راجع: A. J. Wensinck, "Tahadjjud", SEI, p. 559.

(53) كتاب المياني، ص 58؛ تفسير الطبري، ج. 1، ص 97 (حيث يفسر مصطلح القرآن بالقراءة، وهي المصدر الشائع للفعل قرأ، على الأقل منذ أن أخذ القرآن معناه الصحيح؛ ويقدم الطبري أيضًا اسم المفعول «مقروء» في هذا النقاش. وذكر هذا المصدر أيضًا كل من هوروفيتز ونولدكه أيضًا. أنظر:

Horovitz, *Kor. Untersuchungen*, p. 74, n. I. and Nöldeke-Schwally, 1, p. 34.

(47) سورة البقرة: 185؛ المائدة: 101؛ الإسراء: 82، 106؛ طه: 2؛ الزخرف: 31؛ الحشر: 21؛ الإنسان: 23.

(48) قارن أيضًا سورة يونس، الآية: 15، حيث نقلنا عن الذين ينكرون البعث بقولهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يُحِزُّونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بَشَرٌ مِثْلُ سَائِرِ الْبَشَرِ﴾ [يونس: 15]. يُفهم مصطلح «قرآن» هنا بشكل أفضل على أنه يشير إلى «تلاوة» خاصة، ولكن يمكن أن يدل أيضًا على الوحي بكامله.

(49) لا تزال مواد أخرى توجد في القرآن بحاجة إلى الفحص لمزيد من إلقاء الضوء على هذا الجانب من الفهم المبكر للقرآن، مثل التكرار المتعدد للجذر **تلا** (63 مرة)، والاستخدام الأقل تكرارًا رغم أهميته للجذر **حفظ** (16 مرة). كما يتطلب الجذر **جمع** أيضًا فحصًا دقيقًا.

مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»⁽⁵⁹⁾.

ثانيهما: هو حديث عن أحد الصحابة الذي

كان يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حسان مربوط بشطين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وتدنو وجعل فرسه ينفر فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال تلك السكينة تنزلت بالقرآن⁽⁶⁰⁾.

ثمة أيضًا عدة أمثلة في الحديث يشير فيها مصطلح القرآن بوضوح إلى مقطع من القرآن⁽⁶¹⁾. ويبدو أن الصحابة كانوا يخشون من فعل شيء قد يتسبب في «إنزال قرآن خاص في شأنهم»⁽⁶²⁾. فقد كان ينزل قرآن خاص في مناسبات خاصة، كما تظهر ذلك عدة أحاديث⁽⁶³⁾؛ إذ يروي ابن عمر أن رجلًا جاء إلى

(59) الترمذي، 46: 25؛ عبد الله الدارمي، السنن، تحقيق: عبد الله اليماني المدني، جزآن (القاهرة، 1966/1386) 23: 6. (نلاحظ أن هذا الحديث القدسي يتعين إضافته؛ لأنه لم يدرج ضمن الأحاديث التسعين التي ناقشناها في عملنا الموسوم بـ:

W. Graham, *Divine Word and Prophetic Word*.

(60) البخاري، 66: 11؛ الترمذي، 46: 25. وفيما يتعلق بمصطلح السكينة، انظر:

W. Graham, *Divine Word and Prophetic Word*, p. 21, n. 13.

(61) يظهر هذا الاستعمال أيضًا في مصادر لاحقة، مثل القشيري (ت 466 / 1074) الفصول في الأصول (تحقيق وترجمة ريتشارد فرانك، ميديو، 1980/81)، المقال: 45 الذي يعني بكلام الله: «ويسمى المقروء قرآنًا» كما يسمى المشروب شرابًا، أو القصة التي ذكرها ابن منظور، لسان العرب (بيروت، د.ت. ج. 7، 183ab، أن الشاعر عبد الله بن رواحة رأته زوجته يطا الجارية، بما أنه جنب أن أقسم ألا يقرأ القرآن إلا وهو طاهر، طلبت منه زوجته بذكاء قراءة شيء من القرآن حتى يثبت لها، ثم قرأ لها شعرا من ثلاثة أبيات، ليثبت لزوجته براءته؛ لأنها حسبت ذلك قرآنًا.

(62) المسند، 11، 252.

(63) المسند، ج. 1، 237؛ ج. 2، ص 307، 337؛ ج. 3، ص 255 (مسلم، 5، 297).

استعمال الحال الواضح هنا لصيغة المصدر إلا على فعل القراءة.

أما الأحاديث فتقدم جملة غنية من الأمثلة لمصطلح القرآن بوصفه فعل القراءة. يذكر ابن حنبل حديثًا يقول فيه إن من يقرأ سورتي البقرة وآل عمران «فقد قرأ قرآنًا كثيرًا»⁽⁵⁴⁾.

ويصف حديث آخر كيفية رفع محمد «لصوته بالقرآن» عند أداء الصلاة⁽⁵⁵⁾، ومدحه لرجل بقوله: «كان رجلًا كثير الذكر لله في القرآن»⁽⁵⁶⁾.

«ففي كل صلاة يُقرأ القرآن»⁽⁵⁷⁾، وتتحدث أحاديث كثيرة أن «أكثر الناس قرآنًا»⁽⁵⁸⁾ أكثرهم أهلية لإمامة الصلاة. ويتكرر في الحديث أن قراءة كلام الله ترتبط بشكل مماثل إما بصلاة مفروضة أو نافلة. وثمة مثالان آخران

يستحقان الذكر هنا:

أولهما: الحديث القدسي الذي رواه النبي

بقوله:

... يقول الرب: «من شغلته ذكري عن

(54) مسند ابن حنبل، ج. 3، ص 245.

(55) مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ج. 5 (القاهرة، 1955-1956/1375) 4: 145.

(56) ابن حنبل، مسند، ج. 4، ص 159.

(57) المصدر نفسه، ج. 2، ص 285.

(58) البخاري، 10: 54 (مسند ابن حنبل، ج. 5، ص 71)؛ البخاري، 64: 53؛ 3 (مسند، ج. 5، 30 وأحمد النسائي، السنن، ج. 8 [القاهرة، د. ت] 7: 8)؛ محمد بن عيسى الترمذي، الصحيح ج. 13، القاهرة، 1931-1934/1350) 8: 31.

ورغم ذلك، لا يزال المجتمع المسلم يتمسك بالخاصية القرائية الأساسية لكتابه. فقد أعلّى المسلمون منذ زمن مبكر ومتأخر سواء في الصلاة، وفي إحياء الليل، وممارسة الذكر، وقراءات القرآن الاحتفالية [كما هو الحال في رمضان]، والدعاء، وغيرها من الممارسات التعبديّة، من شأن تلاوة الكتاب المقدس إلى فن وإلى واقع مستمر ودائم الحضور في حياتهم الشخصية والاجتماعية. وبهذه الطريقة حافظوا على المعنى الأصلي للقرآن بوصفه تلاوة، بل وحتى عند تبجيله باعتباره كتابًا. وبعبارة أخرى، فقد حافظوا بقوة على معنى القرآن بوصفه كتابًا مقدسًا سواء في بعديه الشفوي والمكتوب.

تعكس الأدلة السابقة من القرآن والحديث بوضوح هذه المشاركة الشفهية الحيوية في الواقع الكتابي. إذ تعد تلاوة القرآن وحفظه و«ذكره»⁽⁶⁹⁾ في الحياة الشعائرية والتعبديّة مفاتيح لفهم الطابع الأساسي لهذا الواقع الكتابي في الإسلام المبكر، وبدرجة أكبر عبر التاريخ الإسلامي. فالمفهوم اللاهوتي للكلام الإلهي الموحى بطريقة مثالية

محمد ليخبره: أن قد أنزل عليه الليلة قرآن»⁽⁶⁴⁾. ويسأل المسلمون وينزل القرآن ليجيب عن العديد من قضاياهم الخاصة⁽⁶⁵⁾، غير أن الحاجة إلى معرفة مثل هذه النصوص القرآنية لمعالجة بعض المشاكل الخاصة كانت أقل أهمية من الحاجة إلى معرفتها من أجل أداء الصلاة: على الأقل من حيث الاستعمال الواسع والمتكرر للقرآن بين جميع المسلمين. ورغم أن أداء الصلاة بدون قرآن يعد عيبًا⁽⁶⁶⁾، إلا أن محمدًا قال لرجل بدوي سأله عن كيفية أداء الصلاة: «إن كان معك قرآن فاقراء، وإلا فاحمد الله، وكبره وهله»⁽⁶⁷⁾. وعمومًا تعد تلاوة كلام الله، وفقًا لحديث واحد، أفضل نعمة أنعم بها على الإنسان⁽⁶⁸⁾.

تؤكد روايات الحديث ما تشير إليه الأدلة القرائية وهو: أن مفهوم الكتاب في الإسلام كان في الأصل- في نظر عدة أجيال وكثير من المسلمين إلى حدود اليوم- تلاوة شفوية لكلام الله. ويهدف الظهور المتأخر لمفهوم الكتاب الإلهي المجموع في المصحف إلى الهيمنة على المفهوم الصوتي المتلو والحيوي المبكر للكلام الإلهي.

(64) البخاري، تفسير سورة البقرة، الحديث: 14 (أيضًا 15، 16).

(65) يجيب ابن عباس عن سؤال رجل آخر يقوله: «سأتلو عليك بذلك قرآنًا»، الترمذي، تفسير سورة المنافقون، الحديث 5، قارن المسند، ج. 5، 30.

(66) المسند، ج. 3، 215.

(67) الترمذي، 2، 110.

(68) المصدر نفسه، 46، 17، 2.

(69) راجع:

P. Nwyia, *Exégèse coranique et langage mystique* (Beirut, 1970), p. 36-37.

يشير الكاتب إلى كيفية ارتباط لفظ الذكر في تفسير مقاتل ارتباطًا وثيقًا بالتلاوة في الصلاة، ويُفسّر في الغالب على أنه قرآن.



هو مفهوم متأخر عن مفهوم كلام الله الذي أراد الله من عباده سماعه وتلاوته في عبادته. فقد كانت تلاوة القرآن والسجود- بغض النظر عن شكلهما الأصلي وحكهما⁽⁷⁰⁾ - الأعمال التعبدية الأساسية التي يعتمدها الفرد والمجتمع المسلم. ويتعين على المرء في أداء العبادة (والتلاوة عبادة أساسية في الإسلام) والحياة الشعائرية أن يسعى إلى البحث عن الطابع المميز للقرآن بوصفه كتابًا: فما وَحَّدَ مجتمع محمد هو الإيمان بأنه أوتي الكلام الإلهي من خلال الوحي، مثل اليهود والمسيحيين من قبله، لتحقيق الهدى والسكينة، التي لن تتحقق إلا في الأفعال المرتبطة بالقلب وتلاوة الكلام الإلهي في كل مناسبة: ومن ثم يَخَيَا هذا الكلام ويتبوأ مكانته بوصفه كتابًا.

(70) لمعرفة تطور العبادات، انظر:

J. Horowitz, "Bemerkungen zur Geschichte und Terminologie des islamischen Kultus", Der Islam, XVI (1927), 249-263; E. Mittwoch, "Zur Entstehungsgeschichte des islamischen Gebets und Kultus", Abh. d. Pr. Ak. d. Wis.s. (1913), n. 2; and C. H. Becker, "Zur Geschichte des islamischen Kultus", Der Islam, III (1912), 374-99.